

جغرافية العالم الاسلامي الانسانية
(منذ نشأتها) الى منتصف القرن الحادي عشر مسيحيا
La géographie humaine du monde musulman
jusqu'au milieu du 11e siècle (J.C.)

تألف أندري ميكال
نشر موطون وشركاه
باريس - لاهاي 1967 .

تقديم : صالح المغربي

بعد الأبحاث العديدة التي حظيت بها الجغرافية العربية (1) صدرت أطروحة الأستاذ أندري ميكال لتوجه اهتمامنا وجهة جديدة إذ من خلال الجغرافية والجغرافيين وفي الإطار الزمني المرسوم للموضوع (2) أراد المؤلف تحليل مظاهر الثقافة العربية الإسلامية الأساسية في القرون الوسطى (3) وتحديد عالم الجغرافيين الذهني باعتبارهم يمثلون طبقة المثقفين (4) ثقافة عامة آنذاك . وقد دعاه هذا الغرض إلى ترك الجغرافية الرياضية وعلم الفلك جانبا لأنهما فنان مقصوران على أهل الاختصاص لا صلة لهما بالأدب (5) وإلى

-
- (1) أنظر قائمة المؤلفين الجغرافيين وفهرست المراجع في أول الأطروحة من ص XIII إلى ص L
(2) اختار المؤلف سنة 1050م لأن هذا التاريخ نقطة تحول عميق أنظر التنبيه ص 11 .
(3) أطلق على هذه الثقافة اسم الأدب في معناه القديم الواسع : أنظر التنبيه ص 8 .
(4) La classe des lettrés
(5) في الجغرافية الرياضية استثنى الأغراض التي ذابت في الأدب، وفي علم الفلك استثنى المعارف الشعبية العملية [Astronomie pratique] المعروضة في كتب الأنواء . ص : 8 .

الاعتناء بالجغرافية الشاملة الأدبية معا تلك التي يحتل فيها الإنسان المقام الأول والتي تكشف عن آراء أصحابها الدينية والسياسية وعن اتجاهاتهم الفكرية وأذواقهم ونظرتهم إلى العالم عامة والعالم الإسلامي خاصة .

وهذا النوع من الجغرافية لم يظهر في المشرق الإسلامي دون المغرب ولم ينحصر في مؤلفات الجغرافيين فكان عليه أن يرجع إلى مصادر مختلفة (6) تاريخية وفلسفية وأدبية وإلى موسوعات علاوة على كتب صورة الأرض والرحلات والمسالك . وأمام كثرة هذه المصادر وتنوعها عمد إلى تعقبها تعقبا تاريخيا ليضبط مناهل هذه الجغرافية وظروف نشأتها ويحدد الفنون (7) ومراحل تطورها وكيفية تلاقحها وليستعرض المؤلفين فيدقق تراجعهم ويثبت دورهم في التجديد أو التحجير ؛ على أن النقاط البارزة في أطروحاته تتمثل - حسب رأينا - في السؤاليين التاليين :

أولاً : ما هي وسائل بحث الجغرافية العربية وطرق عرضها وهل استطاعت أن تفرض تقنياتها وتستقل بذاتها أم لا ؟

ثانيا : ما هي الطبقة الاجتماعية التي نشأت فيها وتطوّرت وبالتالي هل كان لعالم الجغرافيين الذهني أثر في نشأتها وتطوّرها ؟

في الإجابة عن هذين السؤاليين بل في كل عمله استفاد المؤلف من الأبحاث العديدة التي لها صلة بموضوعه فلا تكاد صفحة من كتابه تخلو من إشارة إليها . إلا أنه وقف منها موقف الناقد معتمدا النصوص أولا وبالذات يحكّ آراء من سبقه على محكمها فإن وافقت هذه الآراء النصوص قبلها ودعمها وعمّقها

(6) أنظر الفصل السادس من ص 191 والفصل السابع من ص 244 .

(7) صورة الأرض - الجغرافية الإدارية - الرحلات بحرا وبراً - الجغرافية الأدبية - المسالك والممالك .

وإلاّ نقّحها ؛ من ذلك أنّه دعّم آراء سوفاجي وكلود كهان (1) فيما يخص العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أثرت في تطوّر الجغرافية كما دعّم آراء كرتشكوفسكي وبلاّ (2) في تحديد الاتجاهات الفكرية في القرن الثالث ودورها في توجيه هذه الجغرافية ونقّح آراء فوك (3) في لغة الجغرافيين خاصّة منهم المقدّسي كما نقّح حكم بلاشير (4) الذي اعتبر العلائق النفسية لإبن رسته عملاً خُصّ به الكتاب .

وهذا الاستناد إلى النصوص هو الذي مكّنه من تدقيق وسائل بحث الجغرافية العربية خاصة الوسائل التقنيّة وهي الرياضيات والسّفر والمعاينة والتّقييد الجاف في الأسلوب ومن تتبعها عبر القرنين الثالث والرّابع . فبلغ به البحث المفصّل إلى أنّ التّزعة الأدبيّة لم تنفكّ تصارع هذه الوسائل لتخضعها إلى مقياسها فالسّرخسي (5) يصف البحار والأنهار ويهتم بالتاريخ وسهّراب (6) يعبر عن المعطيات الرّياضية في أسلوب أدبي ويدرج العجائب حتّى إذا ما وصلت صورة الأرض إلى المسعودي باتت مبسطة بعيدة عن أصولها العلميّة . أمّا السّفر والمعاينة والتّقييد الأمين التي امتازت بها « أخبار الصّين والهند » و« رسالة ابن فضلان » (7) فقد حلّ محلّها الخيال والعجائب والأسلوب القصصي في « رحلة أبي زيد السّرافي » و« رسالة أبي دلف مسعر في الأتراك » (8) . وإن أنقذت المسالك المعينة واستغلّتها أحسن استغلال لتبلغ عن طريقها مستوى الجغرافية الإنسانيّة الحقيقيّة فلمدّة معيّنة إذ بعد المقدّسي

(1) Sauvaget ص 114 - و Claude Cahen ص 322 .

(2) Pellat ; Kratchkovsky : الفصل الثاني من ص 35 .

(3) Fück من ص 358 إلى ص 362 .

(4) Blachère ص 192 .

(5) ص 79 .

(6) ص 79-80 : وقد نسب كتابه إلى ابن سريون الذي لا يعرف عنه شيء .

(7) ص 117 وص 132 .

(8) ص 121 وص 139 .

قد جمدت (9). وقد ردّ المؤلف تعلّب النزعة الأدبية على التقنية إلى مناهل الجغرافية العربية نفسها إذ كانت مزيجاً من العلوم الحديثة والعلوم القديمة (10) وإلى التيار الفكري الذي يمثله ابن قتيبة (11) وإلى الجغرافيين ، فهم ينتمون إلى الخاصة المثقفة سواء أكانوا مجرد مثقفين أم تجاراً أم كتاباً أم دعاة مما كان له الأثر العميق في عالمهم الذهني فقد اتفق جلّهم على وضع أسس علمية لعملهم من موضوعية ونقد وروح بحث ولكنّ تكوينهم وحرصهم على إمتناع أصحاب طبقتهم وحبّ الشهرة مالت بعملهم من التقنية إلى الأدب فتجلّت مظاهره في مؤلفاتهم وأهمّها في نظر المؤلف :

- التزوّد من كل فنون المعرفة وحتى من الفنون التقنية بعد تبسيطها .
- التجميد إذ الأدب آفة البحث دعامة الجمع والحوصلة في قوالب باهتة مثل المقابلة والخصائص والعجائب والطبقات .
- الانتحال من الإرث المشترك مقياس الثقافة (12) وما التجديد إلاّ تحوير طفيف من حيث المادّة وتغيير في الشكل وإذا كان التحوير كبيراً فمن باب المبالغة والتعجيب (13) .
- الأدب ثقافة طبقة خاصّة لا يهتمّ بالشعب إلاّ نادراً (14) ولغته لغة

(9) أحيا ابن جبير هذه الوسيلة ولكنها ذبلت عند العبدري واضمحلت عند العياشي .

(10) أنظر الفصل الأول : يعني بالعلوم القديمة العلوم الموروثة عن اليونان والحضارة الهندية الفارسية وبالعلوم الحديثة العلوم العربية الإسلامية من علوم دينية وأخبار وتاريخ وشعر وشروح لغوية .

(11) في الفصل الثاني أقام المؤلف مقابلة طويلة بين الجاحظ وابن قتيبة فنسب إلى الأول الفضول العلمي والروح النقدي والميل إلى البحث الشامل ونعت الثاني بغالقي باب الاجتهاد والبحث وعده مدغم أدب الحوصلّة [Adab répertoire] ولو لم يبد لنا أن من الدوافع إلى هذا الحكم هو أن الجاحظ معتزلي قد تأثر بالفلسفة اليونانية وأن ابن قتيبة سني لجاريته في كل هذه المقابلة ولكن هل من الإنصاف أن نعتبر المذهب السني مذهب التحجر وهل ننسى رجاله العباقرة ؟

(12) أنظر المقارنة بين نص الاصطخري ونص ابن حوقل المترجمين في التتمة الأولى ص 369 .

(13) أنظر الفصل الخامس الذي خص به ابن الفقيه وبالخصوص ص 176 .

(14) من نتائج البحث أن الجغرافية العربية جغرافية مدن وأنها لا تعني بالشعب باستثناء بعض الصفحات من كتاب أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم للمقدسي .

تخضع لنوع الخاصة فالمقدسي الذي يعتبر علّم الجغرافية العربية الإنسانية عمد إلى السّجع ليرضي أهل طبقة في القرن الرابع .

إنّ هذه المظاهر معروفة وهي الغالبة على الأدب فعلا ولكن يجب دراسة كل النصوص التي لها صلة بالأدب لتقف على المظاهر الأساسية في الثقافة العربية الإسلامية في القرون الوسطى بصفة شاملة دقيقة على أنّ هذه الملاحظة لا تخذش مجهود المؤلف الذي استخرج هذه المظاهر من النصوص الجغرافية ودعّمها بأمثلة كثيرة ويبيّن كيف تحوّلت الوسائل التقنية زادا أدبيا .

أمّا فيما يخصّ عالم الجغرافيين الذّهني فإنّه ذهب إلى جدّ بعيد في قصر معالمه على النزعة الأدبية حتى عدّ الوسائل التقنية أعراضا لم تؤثر في هذا العالم . لاشكّ أنّ الجغرافيين قد تأثروا بالأدب ومقاييسه ولكن ألم يكن هذا التأثير متفاوتا ؟ وهل ننزل منزلة واحدة البلخي وابن خرداذبه واليعقوبي والمقدسي من جهة وأبا زيد السّرّافي وقدامه ابن جعفر وابن الفقيه من جهة أخرى ؟ يحسن في نظرنا أن تراعي الفروق حتى يكون تحديد عالم الجغرافيين الذّهني أكثر تلويّنا وإلاّ اعتبرنا كلّ المثقفين في القرون الوسطى طبقة منصهرة في قالب واحد مهما تباعدت شخصياتهم واختلفت مبادئهم .

وخلاصة القول إنّ العمل الذي قام به المؤلّف عمل جليل يمتاز بسعة الاطلاع وطرافة الغرض وقدرة على استغلال المصادر التي استمدّ منها مادة غزيرة مفيدة وإن كانت طريقة العرض أحيانا متشعّبة لأنّه عالج في كل فصل تقريبا مسائل عديدة منها التي ذكرناها .

وإنّنا لتتربّج الجزء الثاني من هذا العمل — وقد وعدنا به في أطروحتة — وهو دراسة أغراض الجغرافية العربية دراسة من شأنها أن تطلّعنا من خلال تصوير الجغرافيين العالم كما شاهده ، على عالم المشرق الذّهني قبل سنة ألف مسيحيا .

دكتورا دولة

—•—

اسماء الزملاء المدرسين بكلية الآداب ، الذين ناقشوا اطروحة « دكتورا دولة »
(Doctorat d'Etat) لدى جامعة باريس ، وذلك منذ صدور « حوليات الجامعة التونسية »
سنة 1964 :

الاسم	الموضوع	تاريخ المناقشة
(1) محمد الطالبي	أ (الاطروحة الرئيسية : « الامارة الاغلبية (184-296 هـ / 800-909 م) : التاريخ السياسي ». (L'Emirat Aghlabide : 184 - 296/800 - 909. Histoire politique). ب) الاطروحة التكميلية : « تراجم اغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض (تحقيق ومقدمة وفهارس) ». (Biographies Aghlabides Extraites des Madâriq du Cadi 'Iyâd) Edition critique avec traduction et index.	3 جويلية 1968
(2) محمد السويسي	أ (الاطروحة الرئيسية : « لغة الرياضيات في العربية » (La langue des mathématiques en Arabe). ب) الاطروحة التكميلية : « تلخيص اعمال الحساب لابن البناء المراكشي (تحقيق وترجمة وتعليق) ». (Le Talhîṣ A'māl al-Ḥisāb d'Ibnal- Bannā') Edition critique et traduction	13 جانفي 1969

الاسم	الموضوع	تاريخ المناقشة
(3) حمادي بن حليلة	<p>أ) الاطروحة الرئيسية :</p> <p>« اهم الاغراض في المسرح العربي الحديث من 1914 الى 1960 » . (Les principaux thèmes du théâtre arabe contemporain de 1914 à 1960).</p> <p>ب) الاطروحة التكميلية :</p> <p>« نصف قرن من المسرح العربي بتونس من 1907 الى 1957 » . (Un demi-siècle de théâtre arabe en Tunisie de 1907 à 1957).</p>	3 ماي 1969
(4) احمد عبد السلام	<p>أ) الاطروحة الرئيسية :</p> <p>« مؤرخو القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر التونسيون » (Les historiens Tunisiens des 17^e, 18^e et 19^e siècles).</p> <p>ب) الاطروحة التكميلية :</p> <p>« الباب السادس (دولة احمد باي) من « اتحاف اهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان » لاحمد بن ابي الضياف (تحقيق مع مقدمة وتحليل وتعليق وفهارس) » .</p>	10 جوان 1969
(5) الشاذلي بويحيى	<p>أ) الاطروحة الرئيسية :</p> <p>« الحياة الادبية بافريقية في العصر الصنهاجي » . (La vie littéraire en Ifriqiya sous les Zirides).</p>	14 جوان 1969

الاسم	الموضوع	تاريخ المناقشة
	<p>(ب) الاطروحة التكميلية :</p> <p>« تحقيق كتاب « قراصة الذهب في نقد أشعار العرب » لابن رشيق . » (Edition critique de « Qurāḍat ad-dahab » d'Ibn Rašīq)</p>	
(6) عبد القادر المهيري	<p>(أ) الاطروحة الرئيسية :</p> <p>« نظريات ابن جني النحوية » Les théories grammaticales d'Ibn Jinnī.</p> <p>(ب) الاطروحة التكميلية :</p> <p>« تحقيق كتاب « النمر والشعلب » لسهل بن هارون ، وترجمته . » (Editions critique et traduction du "Kitāb an-Nimr wa-t-ṣa'lab" de Sahl Ibn Hārūn)</p>	19 ماي 1970
(7) المنصف الشنوفي	<p>اطروحة رئيسية وحيدة : *</p> <p>« صلة نشأة الطباعة والصحافة في تونس بحركة النهضة . » (Le problème des origines de l'imprimerie et la presse arabes en Tunisie dans sa relation avec la Renaissance «Nahḍa»).</p>	22 ماي 1970
(8) فرحات الدشراوي	<p>(أ) الاطروحة الرئيسية :</p> <p>« الخلافة الفاطمية بالمغرب . » (Le Califat fatimide au Maghreb).</p> <p>(ب) الاطروحة التكميلية :</p> <p>« ابتداء الخلافة الفاطمية بالمغرب : تحقيق كتاب « افتتاح الدعوة » للمقاضي النعمان . » (Le Commencement des Califat fatimide au Maghreb : édition critique du Kitāb Itti-tāḥ al-da'wa, du Caḍi al-Nu'mān).</p>	25 ماي 1970